

في الرمضاء إلى الحجاز

## الوميض

للانسة عزيزة توفيق

-----

هناك لحظات لامعة تومض في حياة المرء وقد أحلكتها ظروف الحدوثان . وفي فيض من نور تلك اللحظة التي امت في حياتي وقت أرقب الجموع المحتشدة الودعة لقطار الحجاج الذي يقلهم إلى السويس . ابتعد القطار رويدا واستلقت على مقعد من ورأى أنظر إلى الباكيات أمامي ، وأدير عيني في اللوحين بمناديلهم وقد اغرورقت أعينهم بدموع بدت من ورأسها لهفة الفراق ؛ كنت أشعر بفيض من سعادة شاملة لا تؤثر فيها تلك المناظر الحزينة ؛ فمجت لتفسي اليوم وكم رثيت من قبل للباكي وشاركت الحزون الملتاع !

وصلنا إلى ميناء السويس وانشغلت بملاحظة الحال وهو يحمل حقائبي وأمتعتي وأسرت وراه اعنتل سلم الباخرة وتركته لأبحث عن قرني ، حتى إذا اهتديت إليها تركت حاجاتي وخرجت إلى ظهر الباخرة لأراقب الجموع من جديد وأسمع للتهنيدات وأرى الإشارات ولأبتسم في سكون . ترى لم كل هذا الحزن ؟ أولا يعلم القوم أنهم ذاهبون إلى حيث السمادة الكبرى ؛ يصلون ويبتهلون لله في أوقات معلومة ، وقد ابتعدوا عن زيف الحياة وأغراضها المثعبة ، فيفسلمهم من أدرانها ويففر لهم ما تقدم من ذنبهم ؟ لقد تركت أهلي وعشيرتي وعلى رأسهم أمي في بلدتي وحضرت القاهرة وحيدة لأستقل القطار إلى الباخرة وكلني فرح وابتهاج : روح تسيرها السمادة . تسبح وراء شماعها الذي برق في حياتي فحقق أمنية طالما خفق بها فؤادي وترنمت بها روحي في سلاتي

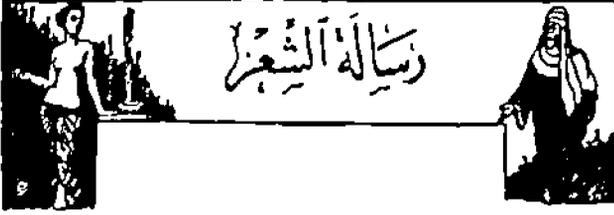
ودوي البوق واهتزت الباخرة لتسير في تودة ، وارتفع بجانبي صوت شجي حنون من حابة ريفية :

يا بحر ياراي « رائق » لاموج يروق ولا ريب يماين

يا بحر يا صكبير لا موج يروق ولا ريب يمبر

وزادت نشوتي ووقفت أطيل النظر إلى عوجات البحر الزرقاء وقد بدت منتشرة على صفحة الماء ، وظهرت وهي تتسابق وتتلاحق كوشى براق خلاب . وكأما اجتذب هذا المنظر الساحر الأسماك فقفزت لاهية لاعبة مع الموج وقد بدا لونها الأحمر المزركش مكلا للمجموعة اللونية المكونة من انسجام ألوان المياه الزرقاء البنفسجية وقد علاها وشى الموج الأبيض . وتحركت شهوة الإنسان في سبي طباخ الباخرة فأسرع بشمه ليصطاد من جموع السمك ما سوف يجهز لنا به وجبة المشاء . وأيقظني من تأملي صوت أجش متسائلا : « لم لم تفادري الباخرة حتى الآن ؟ لقد تحركت في تودة وعمما قليل ستسرع ولن تتمكني من النزول » فتطلعت إلى صاحب الصوت في استغراب كأنما أوقظت من حلم بعيد ، وللمرة الثانية يكرر قوله موضعا « لقد نزل جميع الودعين ما عداك » فتبسمت ضاحكة من قوله وأخبرته بأنني « حاجة » ، وسرى هذا اللفظ « حاجة » في روحي متعة ولذة . وإذ دخلت قرني وطالمني وجهي في المراة ولاحظت شمري المصفف ألممت أن الشرطي كان على حق ؛ فإ يفتني أن أذهب عارية الرأس إلى البيت الحرام . ومن ثم أسرعت بمخلع ملابس الدبنة وارتيديت الجلباب الأبيض الفصفاض وأسدت فخاري على جيبتي . وشمرت إذ ذاك كأن وجهي قد ازداد نورا ، وزوحي قد اكتسب صفاء ، وخرجت إلى ظهر الباخرة من جديد ، لأمتزج بالحجاج فوجدت أن أغلبهم لم يخلع بعد ملابسه

روافقي الشرطي معتذرا بأنه ما كان يظن أن سفيرة مثل تقدم على الحج . وللمرة الثانية نظرت إليه في تعجب وذهول ، وتركته لأجلس مع صاحباني وكلمانه ما زالت تدور في فكري . كيف ينظر الناس إلى الحج على أنه واجب الشيوخ وقد أفتلتهم ذنوب أعمالهم التي سطرتها سنو حياتهم ليتطهروا منها ؟ أو كانت الفريضة وتأيديتها وقفا على الشيوخ دون الشباب ؟ - وكأما كان ينتظرني عجب آخر إذ سمعتهم وهمهم في أحاديثهم وهي تملو على هدير الموج يتذاكرون فيما تركوه من شؤون ، وبدت في أحاديثهم الشجون ؛ فمن شاكية زوجها وهو منها على خطوات ، وأخرى ساخطة على جاريتها وما تركتها إلا من ساعات ، ومن باك على حبيب فقده ، وحاقد على أخ اغتصب حقه من اليراث ، وأنا



في الشعر الطلوع

## التوبة الكبرى:

للاستاذ عبد اللطيف الشهباني

« مهنة إلى أخي الأستاذ أنور المداوي »

هو:

لا تفزعي . . أختاه فالعجر لاح  
على نثار من بقايا الجراح  
غناها المطر  
كفنها الزهر  
قبلها الطل بشفرة الصباح  
ساخرة . . تزدى بهوج الرياح

هي:

طافت بنا الأرواح في أسرها  
مخبولة تنسب في سرها !  
مغلولة اليد  
في قسوة القيد  
لتغرق الآلام في خمرها  
وتدفن الآمال في قبرها

هو:

لا تجزعي . . أختاه لا تجزعي  
هيامي . . سيرى ولا ترجي  
نحتاز رادي الشقاء  
إلى صروح الرجاء

نميد ذكرى حبنا المرع ! !  
وننسل الآثام بالأدمع !

أطل عليهم من تفكيرى الشارد  
أو هؤلاء هم الحجاج يارب : الناس هم الناس في كل مكان  
حتى في الطريق إلى بيتك العظيم !

ومر يوم وكاد الثار ينقضى ، وشاء الله أن يريح فكري ،  
فدري البوق واختناط بدويه الزغاريد ، واستيقظت على نعمات  
القطعة الموسيقية التي كونها تلك المقاطع المتواقة ممتزجة بتصفين  
الأمواج ، ونظرت إلى ساعتى فإذا بها تشير إلى الثانية عشرة  
مساء ، وسر في أذنى صوت يتحدث قائلاً بأننا قد وصلنا « رابع »  
وأن علينا أن نبدأ الإحرام ، وأمرع الجميع إلى الحمام وأنا فيهم  
لنستحم على ترانيم الزغاريد وتلبس ثياب الإحرام . واجتمعنا على  
ظهر الباخرة ، وكانت تلك هي اللحظة الخالدة التي تيمت الرهبة  
في القلوب ، وبحرك أقى النفوس صلابة . الجميع في ابتهاج  
وخشوع « لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك » وقد بدا  
الرجال عمرة إلا من مؤرر أبيض « بشكير » يدور حول وسطهم  
وأخر يغطى كتفهم الأيسر . وارتدت النساء الملابس البيضاء  
الواسمة ، والحجر وقد بدت مثل هالات جميلة حول وجوههن ،  
وضربنها على صدورهن فظهرن في أبدع زى وأكمل زينة .  
عمت الفرحة واشتركتنا في التلبية ؛ السيدات في صوت خافت  
يمتزج بترديد مرتفع قليلاً ومتألف من الرجال « لبيك اللهم لبيك ،  
لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك  
لك » . هانحن قد وقفنا مليون وجننا ساعين ، نلبي نداءك أيها  
الإله العظيم . هذا النداء الذي يسرى في روح كل مؤمن ، وبحرك  
قلبه في كل حين حتى إذا ما وافى ميقات الحج بمت فيه شوقاً  
ينطلق ناراً ونورا لينذهب بمن استطاع إليه سبيلاً حيث يلي  
النداء ، وفاء بوعده الذي وعدته لإبراهيم ؛ فلقد رددت الجبال  
والوديان أذانه في الناس بالحج ، وحملته للأثير ووجد مجالاً في  
قلوب المؤمنين بمن استنشقوه من البشر

ولاحث معالم « جدة » من بعيد فزاد النهيل والتكبير

عزيرة توفيق  
كلية الآداب